الفصـــل الرابع

الجمال الفنى

أ ـ التناسب بين المقسم به والمقسم عليه

يـــبدو أن الطبرى وصل ذات مرة ـــ إلى إحساس مبهم وقاصر بوجود صلة بين المقسم به والمقسم عليه . استدل على ذلك بما قاله فى تفسير سورة ص ، عندما وجـــد المفســـرين اختلفوا فى تفسير تسمية القرآن بالذكر، بين الشرف والتذكير، قـــال: وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال : معناه ذى التذكير ، لأن الله أتـــبع ذلك قولـــــه : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [1] فكان معلوما بذلك أنـــه إنما أخبر عن القرآن أنه أنزله ذكرا لعباده ذكَّرهم به ، وأن الكفار من الإيمان به فى عزة وشقاق [2].

ولكـــن الـــرازى كـــان أول من أشار صراحة ـــ من مصادرى ـــ إلى هذا التناســـب. قـــال مثلا : فى السورة التى أقسم الله فيها لإثبات الوحدانية، أقسم فى أول الأمـــر بالســـاكنات حيث قال: والصافات . وفى السور الأربع الباقية أقسم بالمـــتحركات، فقـــال : والذاريـــات، والمرســـلات، والنازعات. ويؤيده قوله :

---

(١) سورة ص ٢ .

(٢) جامع ٢٣ / ٧٥ .

والسابحات ، فالسابقات ، والعاديات . وذلك لأن الحشر فيه جمع وتفريق، وذلك بالحركة أليق. أو أن نقول فى جميع السور الأربع أقسم بالرياح. وهى التى تجمع وتفرق. فالقادر على تأليف السحاب المتفرق بالرياح الذارية والمرسلة ، قادر على تأليف الأجزاء المتفرقة ، بطريق من الطرق التى يختارها بمشيئته [1].

وصرح الفراهى ــ عن حق ــ بأن ابن القيم فسر أكثر آيات القسم عن طريق يُظهر دلالة المقسم به على المقسم عليه . فإذا أشكل عليه ذلك ، جعل المقسم عليه محذوفا، وجعل القسم دالا على صفات الله وما ماثلها [2].

وأمثل لذلك بقوله عن الأقسام فى صورة الشمس: قد أقسم الله بهذه الأشياء التى ذكرها ، لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهره، وخسارة من خذله، حتى لا يظن أحد أنه هو الذى يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية، من غير قدر سابق وقضاء متقدم. وهذا أبلغ فى التوحيد الذى سيقت له هذه السورة[3] . وقال عن القسم فى سورة المرسلات: فيه أبين دليل وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة [4].

ولم يكتف ابن القيم بذلك ، بل حاول أن يربط بين الأقسام عند تعددها. قال عن القسم فى سورة القيامة : جمع ــ سبحانه ــ فى القسم بين محل الجزاء ــ وهو يوم القيامة ــ ومحل الكسب ــ وهو النفس اللوامة [5]. وقال فى سورة الفجر:

---

(١) مفاتيح ٢٨ / ١٦٧ ــ ٨ . عبد الحميد ٢٥٣ .

(٢) إمعان ١٢ .

(٣) التبيان ١/ ٧٧ .

(٤) التبيان ١/ ٢٧٤ ــ ٥ .

(٥) التبيان ١/ ٦٩ .

افتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات { الفجر } ،وختمه بقوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ المتضمن لآخر الصلوات [1].

وعقب النيسابورى على القسم فى سورة الضحى قائلا : تأمل مطابقة هذا القسم ــ وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل ــ للمقسم عليه ، وهو نور الوحى الذى وافى محمدا بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه : ودع محمدا ربه . فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل، على ضوء الوحى ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه [2]. ولذلك جعله السيوطى من لطائف القسم [3].

وعنى الآلوسى أيضا بتتبع هذه العلاقات. فقال عن القسم بالسماء ذات الحبك : لعل النكتة فى ذلك القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها وتنافى أغراضها بطرائق السماوات فى تباعدها واختلاف هيئاتها، أو الإشارة إلى أنها ليست مستوية جيدة، أو ليست قوية محكمة، أو ليس فيها مايزينها بل فيها ما يشينها من التناقض [4] .

ومن أجل ذلك رأينا الفراهى يجعل من أهداف كتابه إبانة أن الإقسام بالمخلوقات وقع من أجل دلالتها لا تعظيمها .

---

(١) التبيان ١/ ٨٧ .

(٢) غرائب ٣٠ / ١٢٠ ــ ١ . وانظر معترك ١/ ٤٥٥ . الإتقان ٢/ ١٧١ . الآلوسى ١٩٥/٣٠ ــ ٧ . بدوى ١٧٢ ــ ٣ . قمحاوى ٣/ ٢٨ .

(٣) معترك ١/ ٤٥٥ . الإتقان ٢/ ١٧١ . قمحاوى ٣/ ٢٨ . وأتى به دون نسبة : العمرى ٢٥١ .

(٤) روح ٢٧ / ٥ .

ووصـــف د. محمد محمد أبو شيبة ... المقسم به والمقسم عليه فى القرآن بالـــتوافق العجيب غير أنه قد يخفَى على غير ذى العقل الذكى، والنظر الشفاف، والحس الدقيق، الذى يحكم على الأشياء بادئ الرأى من غير روية وتفكير [1].

وقال د. محمد بكر إسماعيل : إذا تأملنا فى آيات القسم ، وجدنا الصلة جد قويـــة بين المقسم به والمقسم عليه، وأدركنا أن بينهما تناسبا وثيقا، بحيث لو جيء مكان أحدهما بشيء آخر لاختل النظام ، وذهبت مواطن الجمال والجلال .

فقد أقسم الله ــ مثلا ــ بطوائف من الملائكة على وحدانيته وربوبيته ، لنفى مـــا زعمه المشركون من وجود صلة نسبية بينه وبينهم فقال :﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ [2].

فقـــد زعموا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا. فأقسم بهم لـــبيان وظائفهم ، وتحديد مكانهم، وإثبات كماله فى ذاته . وبيان أنه الواحد الأحد رب السماوات والأرض وما بينهما .

فلو جيء بمقسم به آخر غير الملائكة ، فقيل مثلا : والذاريات ذروا، أو قيل: والـــنجم إذا هـــوى ، لا ختل نظم الكلام، ونسق المعانى، ولذهب وجه فريد من وجوه الإعجاز البيانى [3].

---

(1) المدخل ٢٤٨ .

(2) سورة الصافات ١ ــ ٣ .

(3) دراسات ٣٧٢ ــ ٣ .

ب ـ البلاغة والإعجـــاز

كـــان محمـــد بن الطيب الباقلانى أول من تعرض للإعجاز فى أقسام القرآن. ولكنه ـــ لما كان يرفض أن يكون الإعجاز قد حصل فى بعض الوجوه بمفردها، من غـــير أن يقارنها ما يصل به الكلام ويفضى عليه ـــ فقد أنكر أن يقول قائل : إن ما أقســـم بـــه القرآن وحده بنفسه معجز[1].يريد بذلك أن الإعجاز فى النظم العام للقرآن .

وجعـــل الســـيوطى إقسامه فى مواضع لإقامة الحجة وتأكيدها الوجه التاسع والعشرين من وجوه إعجازه [2].

ورأى الآلوســـى فى القسم، فى صدر سورة النجم ، على نزاهته ﷺعن شائبة الضلال والغواية ، من البراعة البديعة ، وحسن الموقع ، مالا غاية وراءه [3].

وعقـــد عـــبد الحميـــد الفراهى فصلا لبعض ما فى القسم من أبواب البلاغة ولطائفهـــا، ذكر فيه أن فى أسلوب القسم معانى مفيدة للاستدلال ، مما يفتح عليه من البلاغة أبوابا، ويلقى عليه من المحاسن جلبابا. وذكر منها :

الأول : إظهـــار الـــتأكيد والجـــد فى القول، كما ترى فى قول المرسلين من النصارى، حيث جاء فى القرآن : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ [4].

---

(١) إعجاز ٢٧٦ . سلطان ١٠٧ .

(٢) معترك ١/ ٤٤٩ . شرف الدين ٩٠ .

(٣) روح ٢٧ / ٤٥ .

(٤) سورة يس ١٦ ـــ ٧ .

ولذلك كثر القسم فى أوائل النبوة حتى تبين لهم جده .

الثانى : كون القسم إنشاء . وذلك يُبهم طريق الإنكار على الخصم. فإنه ــ إن شاء ــ أنكر جواب القسم لكونه خبرا . ولكنه لا يسنح له أن ينكر القسم نفسه لكونه إنشاء . كما إنه لا يتوجه إلى إنكار الصفة، مع أنهما ــ فى الحقيقة ــ من الأخبار.

الثالث : إيجاز هذا اللفظ للاستدلال . فإن اللفظ إذا قلّ ، يتراءى المعنى متجردا عن حُجبه ، فيزيده تنويرا وتأثيرا ، كأنه أُرهِف حده، وقُرِّب بعده.

الرابع : إشراك السامع فى استنباط الدليل ، وذلك مما يكسر سَوْرة {حِدّة} خصامه . فإنه إذا علم شيئا بعد التأمل ، فرح به، واهتزّ له . وترى ذلك بيّنا فى أقسام القرآن. فإنها تعرض على السامع أمرا يدعوه إلى استعمال عقله. وربما تسوقه إلى سَمْت الدعوى بلطافة وتدريج .

الخامس : وضع الدليل فى غير صورته كيلايبادر المنكر إلى المخاصمة، لأن ذلك يذهله عن الخصام .

السادس : ما أعطت أوائل السور من نضرة بهجتها، ورونق ديباجتها، إذ تلمع الأقسام فى قسمات السور ــ على الأكثر ــ كالغرة البيضاء . وأما الذى جاء فى أثناء السور من الأقسام فقليل، ومثاله كالتصريع فى أثناء القصيدة. وقد اصطفى القرآن له كل ما إنْ صُوِّر على عنوان الكتاب، أو تمثَّل للفعل فى مطلع الخطاب، ملأ العين والفؤاد بحسنه وجلالته، بل يجل أكثرها عن التصوير لكمال عظمتها، وضيق نطاق الخيال عن سعتها .

السابع : تقديم ذكر الدليل على ذكر الدعوى. فيلقى أولا على الخصم أمرا يوجهه إلى سمت لابد أن يجلبه إلى الدعوى. فإن المنكر ــ إذا علم من قبلُ ما تريد الاستدلال عليه ــ أخذ سمتا {جهة} آخر، وتنكب عن الوجه الصحيح. فإذا لم

تذكـــر الدعوى أولا ، يوشك أن يتوجه إلى صراط مستقيم . فإذا سار على قصد السبيل، قُدْته إلى آخر النتيجة .

الثامن : كون القسم من جوامع الكلم [1].

وواضح أن هذا الأمر الثامن لا يبعد كثيرا عن الثالث، ويحسن دمجهما معا .

وذهـــب محمد الخضر حسين ـــ فى أسلوب نفى القسم بخاصة ـــ إلى أنه من الأســـاليب البليغة فى التوكيد والتحقيق، للدلالة على أن المخبَر عنه واضح بيِّن لا يحتاج إلى قسم [2].

وعلق محسن عبد الحميد على تناول الرازى للأقسام قائلا :

إن الـــرازى ـــ بمعالجته موضوع القسم بهذا الشكل ـــ أراد أن يثبت جانبا آخر من جوانب بلاغة القصد القرآنى، وإعجازه فى استعمال الأساليب على الوجه الأمـــثل، حيـــث نرى أن الوجود كله يمشى على نسق معين : فكل استعمال من استعمالات القرآن إنما يتناسق مع ما فى الوجود من مظاهر متنوعة ، دون أن يكون هـــنالك ارتـــبـــــاط واضطراب وتناقض . وهذه ناحية مهمة من نواحى إعجاز القرآن [3].

ووصـــفت د. عائشة عبد الرحمن القسم القرآنى فى أوائل السور بأنه ظاهرة أسلوبية أخرى من البيان المعجز [4].

---

(1) إمعان ٤٨ ـــ ٥٥ . وانظر إسماعيل ٣٧٠ ـــ ١ .

(2) بلاغة ٤٥ .

(3) الرازى ٢٥٤ .

(4) الإعجاز ٢٢٦ .

ووصف د . محمد أحمد الغمراوى آية ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ [1] بأنها مثال من الإعجاز العلمى للقرآن . فقسمه ـ سبحانه ـ فى هذه الآية له حكمته، لأنها تشمل كل محسوب معدود ، إذ لا يمكن لما له عدد أن يخرج عن أن يكون شفعيا أو وتريا (زوجيا أو فرديا) . ولكن القسم يشير إلى سر فى المقسَم به . فهو لا يدل على مجرد المعدود، ولكن على أهمية كونه شفعا أو وترا. فمثلا عناصر المادة، التى لابد من بعضها أو من مركباتها، فى الاختراعات وغيرها، كل عنصر منها تتوقف ذاته وخواصه على عدد الشحنات الكهربائية الموجبة فى نواة ذرته أو عدد الكهيربات السالبة الدائرة فى أفلاكها حول النواة ... [1].

وقد عقب د . أحمد عبد السلام الكردانى على هذه الأقوال قائلا : ما أروع هذا القسم ودلالته العلمية العميقة [2].

وتؤدى بنا هذه الجولة إلى أن نختلف اختلافا كبيرا مع الغمراوى والكردانى ومن لف لفهما من أصحاب الإعجاز العلمى، وبعض الاختلاف مع السيوطى وصالحة شرف الدين ومن اتفق معهما فى جعل الأقسام وجها مستقلا من وجوه الإعجاز. ونقترب كثيرا من الباقلانى ، فنرى أن كل الآراء التى تحدثت عن بلاغة الأقسام وإعجازها تدفعنا إلى أن نؤمن أن الأقسام القرآنية أحد عناصر الإعجاز البيانى .

---

(1) الإسلام ٣٧٠ . الكردانى ٥٢ .

(2) نماذج ٥٧ .